



كل عضّة بغصّة

المتفائل سيقول انها آلام المخاض. اما المتشائم فسيكرّر في قرارة نفسه المثل الرائج عند اهل دمشق وسائر الشام: "بماذا أذكرك يا إسفرجل؟ كل عضّة بغصّة". لكن الاثنين سيتفقان على ان ثمة شيئاً بدأ يهترئ في مملكة البعث المتبقية، والسؤال الإلّم يفضي هذا الشيء؟ الى الاختناق غصّة بعد غصّة ام الى ولادة جديدة؟ فمن نافل القول ان الاهتراء، اذا حل بعد عمر من السنوات العجاف، لا يعني بالضرورة كساداً بل قد ينعكس اصلاً للفساد.

ولعل ابلغ دليل على حال الاهتراء التي يمر بها النظام القائم في دمشق ان المولجين تقديم الصورة الاكثر عقلانية عنه يفقدون تماسك خطابهم، وإن لم يبارحوا الجدّية المفرطة التي يعشقون التظلل بها، وآخرهم السيد فاروق الشرع، وزير الخارجية الذي قلما خرج على الرصانة الدبلوماسية، الا مع اللبنانيين والفلسطينيين.

ندع جانباً ما تبرّع به السيد الشرع في الموضوع اللبناني، فالخطاب السوري في هذا المجال يبدو منذ اسابيع حائراً بين اعادة اجترار الثوابت وارتجال المخارج. ثم ان ما جاء على لسانه في موضوعات اخرى خلال الاحتفال بعيد الصحافيين السوريين ("النهار"، ٢٨ تموز ٢٠٠٣) اكثر بلاغة.

مما قاله السيد الشرع: "اذا اردنا ان نكون صحافيين نكتب بضمير، علينا ان نضحّي". التوصية لا ريب محمودة (وكم نحن بحاجة اليها في هذه الايام)، لو انها جاءت من ميشال ابو جودة او احد اقرانه الذين كتبوا بضمير وما انفكوا يضحّون.

لكنها عندما تأتي من عضو في القيادة القطرية للحزب الحاكم المتحكم المستحكم منذ اربعين عاماً، فانها تدعو في احسن الاحوال الى الابتسام المرير. فاذا كان السيد الشرع يريد الاشارة بعد غيره الى تعديل مرتقب في السياسة الاعلامية السورية، ألم يكن يجدر به القول الى الصحافيين: "اذا اردتم ان تكونوا صحافيين تكتبون بضمير، علينا (في السلطة) ان نضحّي؟" ويا ليتة ذهب ابعده، فخاطب الصحافيين المواطنين: "اذا اردنا بضمير ان تكونوا مواطنين، علينا (في السلطة) ان نضحّي".

لكن لا بأس، فالاتجاه الى المخاض، وإن بعد غصّة. والارجح ان السيد الشرع لم يرغب في الذهاب ابعده لانه قبل كل شيء وزير الخارجية همّه استيعاب الضغوط التي تواجهها سوريا. وايّ ضغوط! الاشارة هنا ايضاً بالغة الدلالة حول تراجع التماسك المنطقي، اذ يقول الوزير بالحرف: "نعاني اقصى ضغوط خارجية تعرّضنا لها منذ... لا اعرف، لم اعش في القرن السادس عشر".

الجملة تستحق وقفة. اولاً، من المقصود بنون المتكلم؟ سوريا ام الامة العربية العاجزة عن ان تكون واحدة والاعجز عن ابتداء رسالة خالدة جديدة؟ فسوريا لم تكن موجودة في القرن السادس عشر الا في الفكر الاستيعادي للأب هنري لامنس، وقد صورها مقهورة بعد خروج الامويين وتراجع المسيحية فيها، وفي كتابات انطون سعادة، لا في عقيدة ميشال علق. لكنهم ربما نسوا في دمشق ان مؤسس حزب "البعث" كان اسمه ميشال علق. ثم لنفترض ان المقصود هي الامة العربية، فهل صحيح انها لم تواجه في الماضي القريب ضغوطاً بهذه القسوة؟ اذا اكتفينا بالقرن العشرين وحده، ما رأي السيد الشرع بالانقراض الاستعماري الفرنسي على مملكة فيصل، ثم القمع المديد لقيادات



"الكتلة الوطنية"، ام هي ايضاً سقطت من التاريخ السوري؟ وأين يضع في سلم الضغوط نكبات فلسطين، والعدوان الثلاثي عام، ١٩٥٦ وضياح الجولان بعد سيناء والقدس عام ١٩٦٧؟ واذا شاء الاكتفاء من التاريخ العربي بحقبة حافظ الاسد، فكيف يقوّم الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ وما تبعه من مواجهة بين سوريا والادارة الاميركية (هي المواجهة الوحيدة في اكثر من ربع قرن)، وكيف ينساها بعد كل ما اعتدّ به المسؤولون السوريون وحلفاؤهم اللبنانيون من إسقاط للرهان الاسرائيلي - الاميركي وافشال لاتفاق ١٧ ايار؟

بيد ان اغرب ما في جملة السيد الشرع يبقى الاشارة الى القرن السادس عشر. فما يُذكر من ذلك القرن هو ان معظم المنطقة العربية، من الحجاز وأرض الرافدين الى الشام والكنانة وصولاً الى الجزائر، استقرت في ايدي بني عثمان، ولا نحسب ان عتاة القوميين العرب ما زالوا يعدّون سلالة محمد الفاتح وسليمان القانوني في مصاف المعتدين، على الاقل في القرن... السادس عشر! وحدهم القوميون اللبنانيون والقوميون السوريون، وهذا حقهم، بقوا ينظرون الى الدولة العلية على انها كانت في ماهيتها قوة استعمار. فهل يقصد عضو القيادة القطرية لـ"حزب البعث العربي الاشتراكي" الانحياز الى احدى هاتين القوميتين، ام انه يبغى التماهي بدولة المماليك البرجيين، بما سادها من استسهال للظلم ومن طغيان للعسس و"البصاصين" أجداد المخابرات؟

يُفهم ان يفقد السياسي، وان يكن عقائدياً حزبياً، بوصلته التاريخية اذا صح انه يتعرض لضغوط من الحجم الذي حاول التذليل عليه. لكن أليس امامه حلول اخرى؟ يمكنه مثلاً ان يقصد لبنان حيث سيجد عند مضيفيه يقيناً لا تزعره اصداء الارتباك الآتية من دمشق، على ما نوّه به الزميل جهاد الزين، وكأن "الشعب الواحد" الذي رآه حافظ الاسد في دولتين صار الآن في عالمين. كما يستطيع ان يستضيف في دمشق اصحاب اليقين من اللبنانيين عند مرورهم، الحاشد هذه الايام، لزيارة الرئيس بشار الاسد.

الظاهرة بلغت حد المفارقة: سوريا، يقول وزير خارجيتها، تتعرض لاشد الضغوط، ورئيسها يمضي ساعات كل يوم مع سياسيين لبنانيين، وهذا لا يعني غير امر من اثنين: اما ان لبنان موضع الثبات الوحيد للسياسة السورية الخاضعة للضغوط واما انه، على العكس تماماً، موضع الضغوط التي تترس عليها. اياً تكن الحال، لا يملك المواطن، سواء أكان لبنانياً أم سورياً، الا ان يتساءل عما ينفع به معظم هؤلاء، غير تمضية الوقت، ما دام يقينهم يحول دون ان ينصحوا لمضيفهم بتجربة الوسيلة الوحيدة التي لم يختبرها بعد في سعيه للتخفيف من الضغوط: اعادة الاعتبار الى سيادة الدولة، بل الدولتين، بما هي تنبع، في الدولتين معاً، من الشعب، لا من حزب او جيش. ومن دون غصّة.

سمير قصير



Id-Reference	03-Pr-000697	
Media	(Support)	HC
Title		كل عضة بغصة
Subtitle		
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠٣/٨/١ 1/8/2003
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	بشار.أسد - فاروق.شرع - ميشال.ابو.جودة - جهاد.زين - ميشال.عفلق - هنري.لامنس - حافظ.اسد - انطوان.سعادة
	Locations	لبنان - سوريا - فلسطين - دمشق
	Dates	١٩٦٧ - ١٩٥٦ - ٢٨.تموز.٢٠٠٣ - ١٩٨٢
	Themes	سوريا - لبنان - حكم.بعثي - اجتياح.اسرائيلي.للبنان - صحافيين.سوريين - مملكة.فيصل - كتلة.وطنية - عدوان.ثلاثي.١٩٥٦ - نظام.مخابراتي - اتفاق.١٧.ايار - عرب - ميشال.عفلق - استعمار.فرنسي - سوريا.نظام - فاروق.شرع - ملف.لبناني - حزب.حاكم - سياسة.إعلامية.سورية - جولان - قدس - حافظ.أسد - اجتياح.اسرائيلي.١٩٨٢ - إدارة.أميركية - اتفاق.١٧.أيار - قوميون.لبنانيون - قوميون.سوريون - قومية.عربية - مخابرات.سورية - سياسة.سورية
Subject		على ضوء ما قاله فاروق الشرع في عيد الصحافيين السوريين : المتفائل سيقول انها آلام المخاض. اما المتشائم فسيكرر في قرارة نفسه المثل الرائج عند اهل دمشق : "بماذا أذكرك يا إسفرجل؟ كل عضة بغصة. لكن الإثنين سيفتقان على أنه ثمة شيئاً بدأ يهترىء في مملكة البعث المتبقية، والسؤال إلام يفضي هذا الشيء؟ إلى الإختناق غصة بعد غصة أم الى ولادة جديدة؟



النصار
٢٠٠٣/٨/١